لنتحدث عن وحيد ...

بقلم صلاح عبد الصبور

بكيت وحيد النقاش بدموعي كما بكيت حين سلبني الموت احد اعزائي لاول مره .. فوجئت عندئذ بالموت الحق ، لا دلك الموت الخيالي الذي نقرأه في سطور المتشائمين وصفحات الاوراق الميتة .. هذا الموت موت حي .. بجراحه ولذعه في القلب والنفس والعين ، وكان ذلك منذ ما يزيد عن خمسة عشر عاما ، حين مات اعز أتراب طفولتي وصباي . ومرت تلك السنوات ، وانا أتوهم ان الدمع قد جف الا نزر قليل منه ، ترقاه كلمة عزاء مشفوعة بشهاده ان لا اله الا الله ، ان الموت حق على الاحياء .

ولكن القلب الذي ظننته قد صلب انفطر ونفتت ، والعين التي حسبتها قد جمدت حدثتني ، احدث اسأل نفسي .. لم مات وحيد ؟ .. لم سقط كالشجرة التي تمدّ جذورها في الارض ، وتستطيل فروعها نحو الشمس ، حتى اذا برعمت وتأهبت للاثمار ، لم تمهلها فأس الحطاب .

لقد زادت الحياة في نظري اختلاطا وعشوائية حين سمعت بمرض وحيد العضال .

وكسا مدينتنا حزن كثيف ممتد الاستار والاهداب . قال الاطباء ـ فيما سمعنا ـ ان مرضه لا برء منه ، ورغم ذلك فقد تعلقنا باهداب الامل .. بلطف الله .. بقوة العلم .. بتقدم الطب .. بالمعجزة ، حتى اتى النبأ الحزين من باريس ، فنض موكب النقلات ، وحكم في قلوبنا بالقسوة والجور .

لا اريد الآن ان ابكي « وحيد » بكلماتي ، فقد بكيته بدموعي . وستظل ذكراه دمعة جامدة في عيني ، ولكني اريد ان اتحدث عنه ، فالحديث عن الاحباء عزاء ، لون من التعلق الواهم بانهم ما زالوا احياء بيننا لولا كلمة « كان » التي تصدمنا بأن ما كان فقد مضى ، حين نفطن فجأة اننا لم نكن نتحدث ،بل كنا نتذكر .. لا ينجينا من هذا الشعور المعذب الا أن نؤمن ان الارض لا تبتلع ابناءها الاخيار ، ولكنهم يذوبون في أثيرها كما يذوب العطر والموسيقى ، واننا نستطيع ان نجمعهم مرة ثانية في انفسنا ، لنتبادل معهم سمر الليل والوحدة والهدأة الحنون .

ها أنذا اجمع وحيد في نفسي،هذا الصديق النحيل الرقيق البنيان ، القمحي اللون ، ذا العينين الجميلتين الخضراوين حينا العسليتين حينا آخر ، والصوت الرقيق الودود .. بيني وبينه اعوام من العمر ، حفظت لي في قلبه مكانة الاخ الكبير ، وله في قلبي اعزاز الاخ الصغير ..

وحيد النقاش مع ابنته سهى

كنت اتفاءل به ، واحس بمستقبله كأنني اراهن عليه فلم اشهد مثله الاقليلا من شبابنا يتمتعون بقلق النفس الخصب وصفاء العقل الثاقب .. كان قلق نفسه يتحلى ولعا بالفن وسعيا الى نار المعرفة ونورها . وكان صفاء عقله يتجلى في تعبيره الاصيل بجملته ذات الموسيقى الهادئة ،والمنطق الذي يؤاخي بين الجملة والجملة في عبارة ، وبحديثه المرتب النضيد كخطه الحلو في رسائله .. حلو دون تنميق .

غازل وحيد القصة ، فكشفت له عن جمالها ، وزهد فيها قليلا لينطلق الى ارض النقد ، وما رأيت مثل وحيد مثقفا مملوءا بالحماسة لكل جميل في الفن ، يلهج به كأنه هو الذي ابدعه ، او كأنه قد صار جزءا من نفسه ..كان وحيد وراء شيء ما ومن اجله هجرنا الى باريس ، ربما كان يريد الحقيقة كاملة ، ويجد المسرح والفن سبيله اليها ..

وبعد اربع سنين طوال عاد الينا في صندوق مغلق ، تلقاه ثلاثة منا ، رجاء النقاش وأنا وصديق لم يعرف وحيد، ولكنه احبه لكثرة ما سمع من حديثنا عنه ، وما شهد من دموعنا عليه .

وداعا يا عزيزي وحيد ، يا انبل المثقفين وارقهم .. ايها المهاجر الهاجر .. العائد الى قلوبنا .

سأذكرك دائما ، فلست اريد قط .. ان انساك .

القاهرة — صلاح عبدالصبور